

عاشقك لأجل حبيبته

أقصوصة منضوية
بقلم الأستاذ محمود بك نجار

ونسيمه . وكان يقسم لها بأنه لن تطيب
له الحياة إلا بها ، ولن يتزوج في حياته
من سواها ، حتى إذا أفات زمام عفتها من
يدها وزلت قدمها أدار لها ظهره
وأنكرها واختفى عن عينيها

ولقد أحست بمد أشهر بحبيبتها يتحرك
في أحشائها فخشيت أن يفتضح أمرها وأمرعت إلى
شقيقتها بحجة قضاء فصل الصيف عندها ، فأكثرت
لها تلك الدار لتضع حملها فيها إلى أن تم الأمر على
الصورة التي صرت بنا

وقد يلوح غريباً أن (إحسان) تلك الفتاة البائسة
الرفيقة يهون عليها أن تقذف بهذا الطفل البريء
الضعيف وهو غمرة حشاشتها إلى هذا المصير المجهول ،
وأن يتحجر قلبها إلى حد ألا تذرف عليه عيناها
دمعة واحدة وهي تسلمه لأختها . ولكنها في الواقع
كانت لا تزال تحت سلطان ذلك الموقف الرهيب
الذي أقل ما فيه أنه كان يجرّ عليها وعلى أسرته
عار الأبد . حتى إذا مضى شهر على بعهدها وقد
هدأت أعصابها من تأثير الجزع الذي كان استولى
عليها استيقظت في نفسها عاطفة الأمومة الصارخة
فانطلقت دموعها من عينيها غزيرة حارة ، وأخذت
ترجع بالأمّة على طيشها وتسرعها وترى أن ذلك
العار الذي خشيته كان أهون عليها من أن تعبت
بطفلها مثل ذلك العبت الأثيم . ألم بك ولدها ؟
ألم بك قطعة منها ؟ لقد أصبح بينها وبينه بمد ذلك
حجاب قاس ، فلم يمد أمامها نغمه بنظراتها وتفندوه
بمحناتها وتغمه إلى صدرها الدافئ وهي تهزه بيديها

في صباح يوم مبكر كانت سيدة محجبة تقطع
طرقات الاسكندرية بخطى مسرعة وقلبها يدق
وجسمها يرتجف ، حتى إذا بلغت نافذة اللجأ أخذت
تتلفت حولها ، فلما لم تر أحداً بتمعن بها أخرجت من
إزارها طفلاً حديث الولادة ووضعت على الحامل
المتبث عند قاعدة النافذة ثم دقت الجرس ، وبعد لحظة
امتدت يدان فالتقطتاها ثم اختفتا . وعند ذلك اطمأن
قلبها وعادت أدراجها

وكان بالدار سيدة منطرحة فوق سريرها وعلى
وجهها أثر الشحوب والضمف ؛ فلما أقبلت عليها تلك
السيدة المحجبة سألتها في لهفة ، فقالت : انتهى الأمر
على أحسن حال وأصبح إلى جانب أطفال اللجأ .
وعندئذ سرّى عنها وشمرت كأن حملاً ثقيلًا كان
يضغط على صدرها قد ارتفع وزال

وكانت هاتان السيدتان شقيقتين من أسرة
عريقة ، إحداهما وهي التي كانت تحمل الطفل متزوجة
من أحد أعيان الاسكندرية ، أما أختها فتقيم مع
أبويها بالقاهرة ولم يسبق لها عهد بزواج ؛ إلا أن فتى
من فتيانها وقع نظره عليها فأولع بها وأخذ يطاردوها
ويتودّد لها وينفخ من روح غوايته فيها ، وهو كلما
تلاقيا يفتح أمام عينيها آفاقاً جديدة مشرقة بالحب

وتناجيه . لقد حُرمت لذة إرضاعه ، ولذة الاستماع إلى صياحه ، ولذة النظر إليه وهو يحبو ويمشي ، ولذة أول كلمة يخرج من بين شفتيه اللتين في حمة المرجان : أمي !

أما هو فقد أصبح يندفع إلى غير صدرها ويرتضع غير ثديها ، وما كان الرضعات إلا أجيرات يمين ليمين ولكنهن لا ييمن الحنان ، فاهن إلا أمهات صناعات .

كانت إحسان لذلك لا يغمض لها جفن ولا يهنا لها طعام ولا شراب . تمر صورته بعينيها في كل لحظة من لحظات النهار ، وتراه في أحلامها كأنه يمد ساعديه الصغيرين إليها ويندفع إلى صدرها وكأنه يمايتها . حتى إذا ما استيقظت يوماً من الأيام كان حزنها قد بلغ غايته فانطلقت نحو الملجأ وقد وطنت نفسها على أن تعود به .

وقبل أن تأخذ في سبيل ما اعزمته حملت معها كثيراً من الحلوى والأقشعة لتتقدم بها كهدية لأطفال الملجأ ، وقد رُحِبَ بمقدمها سيداته ورجاله وتقبلوا تلك الهدية منها مع التقدير والشكر . وهكذا أخذت تطوف بالفرف وتنفق أولئك اليتامى الذين كثر في وجوههم الحظ لملها نعت من بينهم على طفلها ولكنها لم توفق

ومن الطبيعي أنها كانت تتحاشى أن تبوح بالفرض الذي جاءت من أجله إلا إذا تمكنت من الاهتمام إليه ، فلما بثت أخذت تستفسر من رئيسة الملجأ عن حديث الولادة الجدد وعن

الاجراءات التي اعتاد الملجأ اتخاذها نحوهم ، فهدتها إلى أربعة عشر طفلاً جرى بهم في أيام مختلفة ، منهم خمسة في اليوم الذي حملت أختها صغيرها إليهم فيه . فلما تأملتهم وجدت من بينهم اثنين بشرتهما سمراء ولكنها لم تعرف ولدها من بين الثلاثة الباقين ، لأن الأطفال على أثر ولادتهم يكونون أشبه بقطع حية من اللحم يصعب تمييز بعضها عن بعض ، إذ يكون الشبه بينهم وبين ذويهم لا يزال بعيداً ، فهم في ذلك مثلهم كمثل الصورة السالبة أول ما يبدو منها عند التظهير خطوطاً أولية بتلوها شيئاً فشيئاً أنصاف ظلال فظلال كاملة وعند ذلك يكون الشبه قد تم واستقر

ولا تسَل عن الصدمة التي أصابها في تلك اللحظة التي عاينت كل آملها عليها وهي أمام ولدها وليست أمامه ، فلبثت خائرة حائرة بين هؤلاء الأطفال الثلاثة ولا سيما أن اثنين منهم عيونهما زرقاء كعيني طفلها فأيهما هو الذي حملت به ووضعته وقاست وستقامى عذاب الدنيا ومرارتها فيه ؟ إنها أصبحت أمّاً لكليهما ، فإما أن تأخذها معاً وإما أن تدعهما . على أنها علمت أن هذا الأمل بعيد أيضاً وأن من دونه مباحث وتحريات وتحقيقات يشير من جديد تلك الغضبية التي أمنت شرها وتخلصت منها ، ولذلك استأذنت وانصرفت وهي حزينة باكية كثيرة المعلوم

وكان أبواها طاعنين في السن تغلقت في جسميهما الأمراض فقضيا نحبهما ، ولذلك انتقلت

إلى الاسكندرية لتميش فيها على مقربة من أختها

بعد ثمانى عشرة سنة

كانت إحسان فى موطنها الجديد تشغل نفسها بالطلالة وتقضى كثيراً من وقتها فى الاحسان إلى الفقراء كما أنها لاتنسى زيارة اللجأ وحمل الهدايا إليه . وهى كلما قصدته وقفت عند بابه خاشعة كأنها أمام ضريح يضم فى جوفه رفات ضحايا الأقدار والحظوظ

وكان من النظم التبعة فى اللجأ أن كل لقيط يأنس فيه القدرة على التعلم والاستعداد له بقلته مبادئ للقراءة والكتابة ثم يختصه لحرفة من الحرف تساعد فيما بعد على تحمل أعباء الحياة ، وكان من نصيب ذنبك الطفلين المنشأين صناعة الأحذية

وكم كانت لوعتها حين ذهبت إلى اللجأ فى يوم من الأيام فلم تجدهما ، لأنهما بارحاه بعد أن أصبحا قادرين على العيش بعيدا عنه . نعم كانت مفاجأة قاسية وقد كان هذا المكان قبلها يقيم فلذة كبدها بين أركانها . أما الآن فقد أصبح أمامه هذا الشر الفسيح المترامى الأطراف فكيف تجده وكيف تهتدى إليه ؟

ولقد ظلت احسان سنوات تجوب أزقته وطرقاته وعينهاها إلى الحوانيت والخازن ، حتى إذا وجدت من بينها مصنع أحذية أسرعته إليه ، ولكن سرعان ما تتركه يائسة حزينة ولم تجد طلبتها فيه

وأخيرا بعد أن مضى على ذلك الحادث ثمانى عشرة سنة عولت لآخر مرة على أن تقصد إلى حى محرم بك ، حتى إذا لم تثر عليه فيه لزمته دارها واستسلمت لهمومها

ولقد عثرت فى ذلك الحى على حانوت بجانييه خلف الزجاج أحذية مصفوفة للسيدات والرجال والأطفال ولكنها لم تجد به أحداً فلبثت لحظة ثم همت بالانصراف عنه إلى غيره ، ولكن دافعا من نفسها استوقفتها . وفى تلك اللحظة رأت فى الجانب المقابل للجانوت فتى يسرع نحوها ، فلما رآها دهش وأخذ يسائل نفسه أين سبق له رؤية هذه السيدة . ثم تذكر أنها كثيرا ما كانت تزور اللجأ وتحسن إلى أطفاله ، وعند ذلك شعر بالسروور يتمشى فى نفسه فقال لها : « خيرا يا هانم » . وما كادت عينهاها تقمان عليه حتى انتفض جسمها وخفق قلبها فاندفعت إلى داخل الحانوت وطلبت إليه حذاءين من نوع تلك الأحذية التى رأتها

وعند ذلك تناول شريطا من الجلد قريبا منه وشرع فى قياس قدميها وهو يقول : إنك ستسرين كثيرا من أحذيتنا يا سيدتى . فالتنا مع جودة الجلد التى نقطعها منها وصراعة الدقة فى تفصيلها لا تجرى خلف الريح الكثير لىكى نكسب ثقة الناس فينا وإقبالهم علينا . وكانت فى خلال حديثه تنظر إليه من طرف خفى فأخذت تسأله :

— هل لك زمن طويل فى هذا الحانوت ؟

— ست سنوات يا سيدتى كنت عاملا

فيه أما الآن فقد أصبح الخانوت لى

— ومن الذى عنى بتعليمك هذه الصناعة .

أبوك ؟

وعند ذلك أرسل زفرة طويلة ثم قال : لا ياسيدتى

إنما هو الملجأ وكما كانت المראה التى أحسها

عند ذكر هذه الكلمة ، على أنها قابلات هذه الزفرة

بأخرى مثلها احتبست فى فمها ، ولم يعد يساورها

شك فى أن هذا الفتى هو أحد ذينك الطفلين

الذين كانت تزورها فى الملجأ ، وأنه ولدها وكل

ملاحظه تشير إلى ملامح أبيه من عينيه إلى أنفه

إلى فمه وإلى نبرات صوته

وكان قد طلب فى ثمن الخدائين مائة وخمسين

قرشاً فدفعت إليه جنهين فى سبيل أن يبدل فيهما

كل فنه وعنايته ، ثم انصرفت وهو يكاد يرقص طرباً

وقد حصل على إيجار الشهر المتأخر عليه فلم يعد

يضايقه المالك بسببه

وبعد عشرين يوماً عادت إليه لاستلام الخدائين

وأوصته بالشروع فى خدائ ثالث من نموذج آخر .

وهكذا كانت لا يمر شهر إلا وتوصيه بأعداد خدائين

جديدين حتى أنه كان يقول فى نفسه : لو أن هذه

السيدة تستمر على ذلك فلن أتعرض يوماً ما

إلى مضايقة مالك الخانوت بسبب الإيجار . كما أنه

وجيرانه كانوا يستغربون أمر هذه السيدة وولعها

بالأخذية إلى هذا الحد ، حتى لقد أطلقوا عليها اسم

« عاشقة الأخذية »

وفى يوم من الأيام بعد أن انتهى من خدائها

الجديد كلفته بأرساله إلى منزلها فحمله إليها بنفسه ،

وكانت قد نهيات لطعام المشاء فدعته إلى مشاركتها

فيه فقبل ولكن بعد تردد منه وإلحاح منها . وبعد

أن انتهيا أخذت تتحدث إليه :

— لعلك لا تجهل من هى التى دفعت بك

إلى ذلك الملجأ ؟

— وهل كان هذا ممكناً ياسيدتى وقد كنت

وقتئذ مشدوداً فى قاطب حديث الولادة ؟ إننا معاشر

اللقطاء لا نعرف لنا أباً ولا أمّاً . وكل ما نعرفه عن

أنفسنا أننا من نفايات الخلق لفظنا المجتمع وأصبحنا

من طينة غير طينة الناس . وكثيراً ما كان يزور

الملجأ سيدات معهن أولادهن فأنظر إليهم والأسى

يرتجى والدموع تتساقط فى عيني . أما سبب هذا

المصير الذى كان من نصيبنا فلملح لا يخفى عليك

ياسيدتى . إننا لم نكن غير ثمرة ملوثة من ثمار

الزنا والدعارة . إن لنا أمهات ، ولكن أولئك المرضعات

فى عيني خير منهن لأنهن يموذن علينا ذلك الابن

الذى حرمتنا إياه . ومع ذلك فقد كنا أحوج

إلى ابن آخر لا نجدده عند أولئك المرضعات . كنا

أحوج إلى الحنان ، ابن الروح ، ولكن حيل بيننا وبينه .

وفوق ذلك كان علينا أن نشقى لنكفر عن خطيئات

أمهاتنا

— ومن يدريك أن أمك الآن تبكى بعبك

وتبحث عنك ؟

ولم تبحث عني ياسيدتى الطيبة وأنا لا أعرفها

ولن تهتز جوارحى لها ؟ لقد قطعت على طريق

المودة إليها ومهدت السبيل أمامي لانكارها ونسيانها. كم كنت أود لو أنها أبقت علي فاحمل عارها وأغفر زلتها والمصمة لله وحده، ولكنها أبقت علي حتى ذلك فباعدت بينها وبينى، وأغلقت فؤادها من دونى فحرمتنى نصيبى عنده من نعمة الحنو الذى غرسته فيه بد الله. وما خفى بيحتمها عنى أو اجتماعها بي ؟ إننى يومئذ أجد أمى ، ولكننى لا أجد ذلك الحنان الذى كنت فى حاجة إليه عندها وأنا طفل لا حول لى ولا حيلة . بل إننى لأخشى أن أذهب إلى أبعد من هذا لأن الملجأ إذا كان قد فك تلك الأغلال التى وضعتها فى يدي فإن على واجباً آخر وهو أن

أحطم هذه الأغلال وأحطمها معها .. وعند ذلك صرخت إحسان قائلة: كفى يا حسن غسبي من العذاب ما تحملته ثمانى عشرة سنة وأنا لا يهدأ لى جنب ولا يطرف جفنى، غمض حتى إذا اهتديت إلى حانوتك كان لى منه بعض السلوى وأنا أعيش بين هذه الأحذية التى لم يكن لى حاجة بها، وإنما لأنها تحمل أثر أصابعك . إننى أمك ... ثم سقطت مغشياً عليها. فأمرع نحوها ينضح وجهها بالدماء وينهضها ثم أقبل على جبينها يقبله وهو يهمس فى أذنها والبكاء يكاد يخرج منه :
ساعينى يا أمى !
محمود خيرت

المجموعة الأولى للرواية

١٥٣٦ صفحة

فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى المصر لوسيه ، والأذيسة لهوميروس ، ومذكرات نائب فى الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .

الثن ٣٤ قرشاً مجلدة فى جزمين
و ٢٤ قرشاً بدون تجليد
خلاف أجرة البريد

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالانعامه الابنية

٥٠ السنة الأولى فى مجلد واحد

٧٠ كل من السنوات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة فى مجلدين

وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش فى الداخل وعشرة قروش فى السودان وعشرون قرشاً فى الخارج عن كل مجلد